عثمان اسماعيل محمد حسين
كاتب وباحث

الطفولة.. بناء واستثمار

تمثل الطفولة المقصد الأسمى من الزواج، بل أمل الوالدين كفطرة نحو هوية الأبوة وحلم الأمومة، فالأبناء هم حلية الدنيا وزينتها وإعمار الكون وبقاؤه، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦)، وفي سياق آخر بصيغة دعاء عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤)، وتكون الطفولة في غايتها تكوين الابن الصالح الذي هو مصدر البر للوالدين والعطف عليهما في الدنيا والدعاء لهما بالرحمة والمغفرة بعد مماتهما، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (رواه مسلم). والمتأمل لمفهوم الطفولة في المناخ الحياتي يلحظ أن هذا المفهوم قد تطور عبر العصور شأنه شأن سائر الأمور التي تقبل التغيير حسب مقتضى الحال ومعطيات الحياة.. فكانت النظرة إلى الطفولة في عصور مضت هي الذرية والعصبة والقوة وزهو القبيلة وفخر العائلة بغية المكانة والوجاهة... وظل هذا المفهوم التقليدي مسيطرا على العقل والفكر إلى حد كبير فانحسرت الطفولة في ذلك العنصر البشري بعيدا عن ماهيته وغائيته ودوره في الحياة..

وفي تلك الحقبة من أوائل هذا القرن تغيرت النظرة إلى الطفولة إلى مفهوم عصري حديث يعتمد على ركيزة التلاؤم والتناغم مع مرحلة اجتماعية جديدة ذات نمط حياتي له طبيعته الخاصة تجاه الطفولة؛ بناء وتكوينا واستثمارا، إضافة إلى أن الواقع التربوي يشهد مصادر متعددة تكفل طفولة أساسها حسن الإعداد وإتقان التكوين وتحقيق المقصد منه والغاية، لأن التنشئة والتربية صارت «إعدادا» لهذا المنتج البشري مواجهة لهوية الحياة التي نعيشها بل التي فرضت علينا.. ومن هنا أخذت الفطرة

البشرية تظهر إعجازها لتتلاءم مع تحديات هذه الحياة فتلاءمت مع أساليب التعليم المتباينة وما ينبغي أن تكون عليه من سلوكيات تميل إلى النفع وتدفع إلى الخير، ومن أمثلة ذلك:

❖ إقبال الوالدين على إلحاق أطفالهم وهم في سن مبكرة بمدارس تحفيظ القرآن الكريم حتى يتسنى لهم بناء شخصياتهم روحيا ووجدانيا وسلوكيا وما يؤهلهم إلى التمسك بالقيم والمبادئ والفضائل التي دعا إليها الدين الإسلامي وبذلك نضمن سلامة تأسيس هذا البناء الروحي والسلوكي إعدادا لشخصية سوية يكتب لها التوفيق في التفاعل الاجتماعي فكريا وسلوكيا.

❖ محاولة الوالدين توضيح طريق الفضائل للطفل نظرية وتطبيقا، وأهمها على سبيل المثال الالتزام بفضيلة «الصدق» التي هي طريق النجاح والتوفيق فيما يتمناه الطفل في حاضره ومستقبله، كالصدق مع الله ومع النفس والآخرين ممارسة وتفاعلا... وبيان فداحة رذيلة الكذب وعواقبها المدمرة والتي نتاجها الفشل الذريع وآثاره السيئة.

❖ محاولة الوالدين ترسيخ التربية الوجدانية في نفوس وسلوك الأطفال كتنمية مشاعر الحب والإخلاص والانتماء والوفاء، وذلك بغية بناء طفولة ركيزتها الأمن والأمان النفسي وحب الخير للآخر، تجنبا لسلبية الصراعات الداخلية التي هي مضيعة للوقت وطريق إلى إهلاك الذات والإخفاق القاتل الذي لا يجلب معه إلا التحسر والتندم.

❖ محاولة تنمية مهارات الطفل العقلية والمعرفية منذ الصغر لمعرفة ميوله في استيعاب ما يتناسب مع قدراته كالفنون والتكنولوجيا مما يشجعه على الالتحاق بمراكز المواهب وأندية العلوم والمكتبات، وذلك ليسلك طريق الابتكار والإبداع لمسايرة طبيعة الحياة، مما يساهم في بنائه عقليا وثقافيا ومعرفيا، والعمل على تنمية مهارات التعلم بمختلف مجالاتها وأساليبها.

❖ منح الطفل مساحة من الحرية لإبداء الرأي والفرصة لاشتراكه في المسابقات المختلفة ليعيش ويمارس روح المنافسة ومواجهة الآخر والقضاء على آفات التردد والخجل والخوف والعمل على اقتحام مناخ التنافس وإثبات الذات وليرى ذاته من خلال قدراته راضيا عنها مقتنعا بها..

❖ حث الأطفال على استغلال المدرسة كبيئة تربوية تعليمية فعالة للأنشطة المختلفة استغلالا فعليا وجادا ومثمرا نافعا له مردوده الإيجابي، ومحاولة الاستفادة من ذلك في بناء شخصية الطفل وإكسابه فن التعامل مع الآخر.

❖ الإقبال اللافت للنظر على مدارس «اللغات» ومراكز تنميتها وتعليمها وذلك لتعلم ما يروق له من لغة أو اثنتين إعدادا وتحسبا لأي احتمالات يطلبها ما يطلق عليه «سوق العمل» مستقبلا. فتعلم اللغات بات ضرورة عصرية ملحة ولم يعد من باب الوجاهة والمفخرة بقدر ما هو طريق فعال للتكوين الثقافي والأفق المعرفي الجيد لمستقبل تتطلبه الحياة المعاصرة بتحدياتها ومعطياتها ومختلف متطلباتها.

❖ الإقبال على دورات تعلم برامج الحاسب الآلي المختلفة والتي غزت مناحي الحياة، حيث أصبح هذا الجهاز عصب التعامل اللحظي واليومي والحياتي والتعامل عبر شبكة المعلومات (الإنترنت)، وذلك استعدادا لمستقبل التفاعل الحياتي والوظيفي والعملي وتجنبا لأي مواجهة مفاجئة تجاه ما تتطلبه معطيات الحياة الحديثة.

❖ لقد تغيرت فلسفة النظرة إلى الطفولة في العصر الحديث نظرا لأهمية هذا النوع البشري وعلاقته بنمط الحياة التي أوجدت مصادر وروافد عدة للإعداد والتكوين والتربية الإيجابية ابتغاء منتج بشري يتواكب وهوية ما يتعايش معه من تقدم وتطور مستمرين، وبذلك نالت الطفولة نصيبها الأوفر من وسائل وفرص التفكير والتثقيف والابتكار والتطلع ولكن شريطة أن يتوافر عنصر الاستعداد لدى الأسرة والطفل.

ومن هنا وضحت مكونات الطفولة التي تتلاءم وفق ما تكون عليه طبيعة الحياة الحديثة، فهذا الطفل ينتظره الغد شابا ورجلا سويا قادرا على خوض غمار الحياة واثقا من ذاته ونجاحه وتفوقه، لا يعرف هيبة ولا ترددا ولا تخاذلا اعتمادا على سلامة البناء واتقان الإعداد وهذا ما يتمناه الوالدان من السعي في طريق استثمار الطفولة لصناعة الابناء وضمان جيل لمستقبل أفضل..

فالطفولة -تكرارا ومرارا- لم تعد حلم الإنجاب وزهو العصبة وأمل العائلة: عددا وحصانة وقوة، بل أصبحت استثمارا لتلك الثروة البشرية التي حظيت بما يؤهلها للتكيف الفكري والمعرفي والمجتمعي لتقف على أرض صلبة ونرى فيها -حاضرا ومستقبلا- ثمرة إعدادها وتكون بحق زينة الحياة الدنيا أخلاقا وثمارا وآثارا...

فهل آن الأوان أن تتغير النظرة التقليدية والمفهوم الموروث تجاه الطفولة إلى ذلك المفهوم العصري الذي نضمن به أجيالا نرى فيهم الحياة والوطن بوجه آخر؟!